الفصل الثالث

الإطار النظري

أولاً: - نبذة عن الشيخ عبد القاهر الجرجاني: [1]

هو أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني، توفي سنة إحدى وسبعين وأربعمائة، وقيل سنة أربع وسبعين وأربعمائة من الهجرة (العبر في خبر من غبر: 330/2. طبقات الشافعية الكبرى للسبكي: 242/3).

لم يذكر المؤرخون سنة مولده، ولم يتحدثوا عن أسرته، وعن حياته الاجتماعية، مما يدل على أنَّ حياة الشيخ كانت حياة هادئة لم تطرقها أحداث مهمة تلفت انتباه المؤرخين، ولعل أبرز ما في حياته شغفه بالعلم والتحصيل.

---

(١) (انظر ترجمته في: نزهة الألباء للأنباري: 363. العبر في خبر من غبر للذهبي: 330/3، طبقات الشافعية الكبرى للسبكي: 242/3. طبقات الشافعية لابن قاضي شهبة: 271/1-27، النجوم الزاهرة لابن تغري بردي: 108/5، بغية الوعاة للسيوطي: 106/2، طبقات المفسرين للداودي:336/1، شذرات الذهب لابن العماد: 340/3-341، الأعلام للزركلي:4 48، معجم المؤلفين: 310/5.

(وهي إحدى الدول التي انفصلت عن الدولة العباسية، وانتهى حكمها سنة 433هـ، في عهد أنو شروان بن منوجهر بن قابوس ابن وشمكير، وأصبح الحكم في يد (طغرلبك) من السلاجقة، وتوفي الشيخ وهي في أيديهم / الكامل في التاريخ: 30/8، محاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية (الدولة العباسية): 394-416.

وكل ما يعرف عن الشيخ أنه كان تقياً ورعاً، أشعرياً، فقيهاً على مذهب الشافعية(طبقات الشافعية الكبرى للسبكي: 242/3، طبقات الشافعية للأسنوي: (491/2-492).

وهو نحوي مشهور في عصره، ولم يشتهر بكونه بلاغياً إلاَّ في عصرنا الحاضر، حين نشر الشيخ محمد رشيد رضا كتابيه (دلائل الإعجاز)، و (أسرار البلاغة).

وكان مولد الشيخ عبد القاهر في مدينة جرجان، وهي مدينة مشهورة بين طبرستان وخراسان (معجم البلدان: 119/2).

عاش في عصر الدولة الزِّيَّاريَّة (3. ومن المشهور أن الشيخ عبد القاهر لم يرحل عن جرجان، وأخذ علمه بها، فدرس النحو على أبي الحسين محمد بن الحسين الفارسي مجالسة، وقيل أنه درس على يد القاضي الجرجاني (الحموي، 1399هـ، 18/ 186-188).

وكان طلبة العلم يشدون الرحال إلى جرجان، للأخذ عن الشيخ عبد القاهر، إذ ذاع صيته واشتهر(القفطي، 1406هـ، 188/2).

ومن أشهر تلاميذه: علي بن أبي زيد الفصيحي(الحنبلي، د.ت،340/3)، وأحمد ابن عبد الله المهاباذي الضرير صاحب شرح كتاب اللمع لابن جني(الحموي،1399هـ، 219/3)، وأبو نصر بن إبراهيم بن محمد الشجري (القفطي، 1406هـ،190/2).

ولقد كثرت مصنفات الشيخ عبد القاهر وتنوعت، فمنها ما كان في النحو، مثل:

كتاب المغني (الذهبي،1405هـ،330/27)، والمقتصد(حاجي خليفة، 1402هـ، 212/1)، والتكملة (الزركلي، 1406هـ، 49/4)، والإيجاز (حاجي خليفة، 1402هـ، 212/1)، والعوامل المائة (الأنباري، 1405هـ، 363)، والجمل (القفطي، 1406هـ، 189) والتلخيص (الكتبي، 1393هـ، 369/2)، والعمدة في التصريف (السيوطي، 1399هـ، 106/2).

ومنها ما كان في العروض مثل: (كتاب في العروض) السبكي، (د. ت، 242/3).

ومنها ما كان في الدراسات القرآنية، مثل: شرح الفاتحة(السبكي، (د. ت، 242/3)، درج الدرر في تفسيرالآي والسور (البغدادي، 1402هـ، 606/1)، والمعتضد (السيوطي، 1399هـ، 106/2)، إعجاز القرآن الصغير (الأنباري، 1405هـ، 363)، الرسالة الشافية (الكتبي، 1393هـ، 369/2).

ومنها ما كان في البلاغة مثل: دلائل الإعجاز، وأسرار البلاغة (طاش كبري زاده،1397، 369/2)، وهما من أشهر كتبه في العصر الحاضر.

ومن مؤلفاته في الأدب: المختار من دواوين المتنبي، والبحتري،

وأبي تمام (الميمني، 1408هـ، 201)، ومختار الاختيار(البغدادي، 1402هـ، 606/1)، والتذكرة (القفطي، 1406هـ، 189/2)، والمفتاح(زادة، 1397هـ، 158/1).

وللمكانة العلمية الراسخة للشيخ عبد القاهر الجرجاني، فقد قامت حوله دراسات مستفيضة قديماً وحديثاً، غير أنَّ ما يميز الدراستين، أنَّ الدراسات القديمة، أبرزت الشيخ على أنه عالم نحوي، ولم تشر إلى كونه بلاغياً، أمَّا الدراسات الحديثة، فقد أبرزته شخصية بلاغية نقدية فذَّة، وامتازت الدراسات الحديثة بالعمق والتفصيل.

ثانياً: - نظرية النظم:

1- تعريف النظم:

النظم في اللغة: هو التأليف، نَظَمَه ينظمه نَظْماً ونظاماً، وَنظَّمَهُ فانتظم وتنظَّم، ونَظَمْتُ اللؤلؤ أي جمعته في السلك، والتنظيم مثله، ومنه نَظَمتُ الشعر ونَظَّمته، ونَظَم الأمر على المثل.

وكلُّ شيء قرنته بآخر أو ضممت بعضه إلى بعض، فقد نَظَمته.

والنَّظم: المنظوم، وصف بالمصدر، والنَّظْم: ما نَظَمته من لؤلؤ وخرز وغيرهما، واحدته نَظمَةٌ، ونَظْمُ الحنظل حبُّه في صيصائه(ابن منظور، د. ت، (نظم، 578/12).

فـ (النظم بمعنى سبك الألفاظ، وضم بعضها إلى بعض، في تأليف دقيق بينها وبين المعاني، فيجريان معاً في سلاسة وعذوبة، كالجداول لا تعثر ولا كلفة، ولا حوش في اللفظ، ولا زيادة أو فضول) (سلاَّم، 1388هـ، 108).

وهو ما عبَّر عنه الشيخ عبد القاهر بعبارة أدق بقوله: " أنّ ليس النظم إلاَّ أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو، وتعمل على قوانينه وأصوله، وتعرف مناهجه التي نهجت، فلا تزيغ عنها، وتحفظ الرسوم التي رسمت لك، فلا تخل بشيء منها "(الجرجاني عبد القاهر، د. ت،81).

فعلى ذلك، يكون النظم هو تأليف الكلام وسبكه، بحيث يأخذ بعضه برقاب بعض وتتعلق كل كلمة بما قبلها وبما بعدها، بحسب ما يقتضيه علم النحو، فيكون توالي الكلمات في النطق بحسب تواليها في النفس.

2- مفهوم نظرية النظم عند الشيخ عبد القاهر الجرجاني:

لا نستطيع أن نقول إن الشيخ عبد القاهر الجرجاني، هو واضع نظرية النظم، بل يمكننا القول بأنه هو مؤسسها. فقد وجدت بذور هذه النظرية عند علمائنا القدماء، منثورة في كتب النحويين، والبلاغيين، واللغويين، والمفسرين، والمتكلمين، قبل الشيخ عبد القاهر، ولكنها لم توجد في أي منها، على أنها نظرية متكاملة الجوانب، فآخر ما وصلت إليه، كان على يد القاضي عبد الجبار

الأسد آبادي، الذي ذكر أن النظم هو خصوصية في نظم الكلم، وضم بعضها إلى بعض، بطريق مخصوص، فقال: (واعلم أنَّ الفصاحة لا تظهر في أفراد الكلام، وإنما تظهر في الكلام بالضم على طريقة مخصوصة، ولا بد مع الضم من أن يكون لكل كلمة صفة، وقد يجوز أن تكون هذه الصفة بالمواضعة التي تتناول الضم، وقد تكون بالإعراب، الذي له مدخل فيه، وقد تكون بالموقع، وليس لهذه الأقسام الثلاثة رابع، لأنه إمَّا أن تعتبر فيه الكلمة أو حركاتها، أو موقعها، ولا بد من الاعتبار في كل كلمة، ثم لا بد من الاعتبار مثله في الكلمات، إذا انضم بعضها إلى بعض، لأنه قد يوجد لها عند الانضمام صفة، وكذلك لكيفية إعرابها، وحركاتها، وموقعها فعلى هذا الوجه الذي ذكرناه، إنما تظهر مزية الفصاحة بهذه الوجوه دون ما عداها) (الأسد آبادي، 1385هـ، 199/16).

ثم يذكر نصاً آخر يزيد النظرية توضيحاً، حيث يبين فيه كيفية اكتساب اللفظ المزية والجهة التي تحصل بها الفصاحة، فيقول: " وهو أن يعلم أفراد الكلمات، وكيفية ضمها، وتركيبها ومواقعها فبحسب هذه العلوم والتفاضل فيها، يتفاضل ما يصح منها من رتب الكلام الفصيح"(الأسد آبادي، 1385هـ، 208/16).

وهكذا حُدد إطار نظرية النظم على يد القاضي عبد الجبار، بعد أن استفاد من جهود السابقين.

وأخيراً أتى الشيخ عبد القاهر الجرجاني، وتلقف هذه الفكرة بعد تدرجها في النمو، حتى ولدت على يد القاضي عبد الجبار، فتعهدها الشيخ عبد القاهر بالرعاية والتربية والتوجيه، حتى نضجت، واستوى عودها وقوامها وتكاملت جوانبها بالبسط والشرح والإيضاح، وضرب الأمثلة فأرسى بذلك قواعدها، وأصبح - بحق - يستحق إطلاق لقب - مؤسس نظرية النظم - عليه، حيث رسم لها حدودها، وعرَّفها، وألح في بيان مفهومها وضرب لها الأمثلة وحللها.

وترى الباحثة أنَّ الشيخ عبد القاهر الجرجاني، قد بنى نظريته على ثلاث دعائم:

1- **الدعامة الأولى:** -

- ترتيب المعاني في النفس بموجب إعمال العقل والفكر:

وهذه الدعامة تُخرج النظرية من كونها عملية آلية، إلى كونها عملية نفسية عقلية يرتبط فيها الشعور والإحساس، بالعقل والتفكير.

فمن أجل إثبات هذه الدعامة، فرَّق الشيخ بين حروف منظومة، وكلم منظومة.

فالحروف المنظومة هو مجرد تواليها في النطق، من غير أن يكون هناك معنى ينتج عن هذا التوالي وحتى الناظم لهذه الحروف، لم يعمل عقله قاصداً إلى معنى بعينه، فلو أن واضع اللغة، قال

(ربض) مكان (ضرب)، لما كان ذلك مؤدياً إلى فساد، أمَّا (نظم الكلم)، فلا بد للناظم لها أن يعمل عقله في ترتيب المعاني بحسب ترتيبها في النفس، يقول شارحاً هذه الفكرة: (ومما يجب إحكامه بعقب هذا الفصل، الفرق بين قولنا (حروف منظومة)، و (كلم منظومة)، وذلك أنَّ نظم الحروف هو، تواليها في النطق، وليس نظمها بمقتضى عن معنى، ولا الناظم لها بمقتفٍ في ذلك رسماً من العقل اقتضى أن يتحرَّى في نظمه لها ما تحراه، فلو أنَّ واضع اللغة كان قد قال (ربض) مكان (ضرب)، لما كان في ذلك ما يؤدي إلى فساد.

أمَّا (نظم الكلم)، فليس الأمر فيه كذلك، لأنك تقتفي في نظمها آثار المعاني، وترتبها على حسب ترتيب المعاني في النفس، فهو إذن نظم يُعتبر فيه حال المنظوم بعضه مع بعض، وليس هو (النظم)، الذي معناه ضم الشيء إلى الشيء كيف جاء واتفق. ولذلك كان عندهم نظيراً للنسج والتأليف، والصياغة والبناء، والوشي والتحبير، وما أشبه ذلك، مما يوحي اعتبار الأجزاء بعضها مع بعض، حتى يكون لوضع كلٍّ حيث وضع علة تقتضي كونه هناك، وحتى لو وُضع في مكان غيره لم يصلح (الجرجاني عبد القاهر، د. ت، 49).

ويستمر الشيخ في إثبات أنَّ الناظم يعمل فكره أولاً في ترتيب معانيه في النفس، وتبعاً لذلك تتوالى الألفاظ في النطق، فإنه (لا يتصور أن تعرف للفظ موضعاً من غير أن تعرف معناه، ولا أن تتوخَّى في الألفاظ من حيث هي ألفاظ ترتيباً ونظماً، وأنك تتوخَّى

الترتيب في المعاني وتُعمل الفكر هناك، فإذا تم لك ذلك اتبعتها الألفاظ، وقفوت بها آثارها وأنك إذا فرغت من ترتيب المعاني في نفسك، لم تحتج إلى أن تستأنف فكراً في ترتيب الألفاظ، بل تجدها تترتب لك بحكم أنها خدم للمعاني وتابعة لها، ولاحقة بها، وأنَّ العلم بمواقع المعاني في النفس، علم بمواقع الألفاظ الدالة عليها في النطق) (الجرجاني عبد القاهر، د. ت، 53-54).

2- **الدعامة الثانية:** -

- مراعاة السياق والموقع في التأليف.

ويقصد به ضم الكلام بعضه إلى بعض، فاللفظة المفردة، لا تثبت لها الفضيلة وخلافها، إلاَّ بحسب موقعها في الكلام، يقول: (. . إنَّ الألفاظ لا تتفاضل من حيث هي ألفاظ مجردة، ولا من حيث هي كلم مفردة، وإنَّ الفضيلة وخلافها، في ملائمة معنى اللفظة لمعنى التي تليها، وما أشبه ذلك، مما لا تعلق له بصريح اللفظ) (الجرجاني عبد القاهر، د. ت، 45-46).

ويضرب مثلاً لذلك قوله تعالى: ﴿ **وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ** ﴾ [هود: ٤٤].

فالمزية الظاهرة، والفضيلة القاهرة في الآية، ترجع إلى ارتباط هذه الكلم بعضها ببعض وأن لم يعرض لها الحسن والشرف إلاّ من حيث لاقت الأولى بالثانية، والثالثة بالرابعة، وهكذا إلى أن

تستقر بها إلى آخرها، وأنَّ الفضل تناتج ما بينها، وحصل من مجموعها (الجرجاني عبد القاهر، د. ت، 45).

ثم يضع لنا ميزاناً نقدياً حكيماً لإثبات هذه الدعامة، وأثرها في نظرية النظم، وهو ما يمكن أن نسميه بالعزل النقدي الفني، بحيث تعزل الكلمة عن أخواتها في التركيب، فنحس ونشعر بفقدانها لحسنها ورونقها، يقول: (وإن شككت، فتأمل، هل ترى لفظة منها بحيث، لو أخذت من بين أخواتها، وأفردت، لأدت من الفصاحة ما تؤديه، وهي في مكانها من الآية؟

قل: ﴿ابْلَعِي﴾، واعتبرها وحدها من غير أن تنظر إلى ما قبلها وما بعدها، وكذلك فاعتبر سائر ما يليها) (الجرجاني عبدالقاهر، د. ت، 45).

ثم يأخذ الشيخ في بيان العلاقات حيث ترتبط كل كلمة بما تليها، ويضع أيدينا على مواضع وطرق تلك العلاقة التي تكَّون منها السياق، فقال: " وكيف بالشك في ذلك، ومعلوم أنَّ مبدأ العظمة، في أن نوديت الأرض، ثم أُمرت، ثم أن كان النداء (بيا) دون (أي)، نحو " يا أيتها الأرض "، ثم إضافة " الماء " إلى " الكاف " دون أن يقال: " ابلعي الماء "، ثم أن أُتبع نداء الأرض، وأمرها بما هو من شأنها، نداء السماء، وأمرها كذلك بما يخصها، ثم أن قيل: " وغيض الماء "، فجاء الفعل على صيغة (فُعل) الدالة على أنه لم يَغِض إلاَّ بأمر آمر، وقُدرة قادر، ثم تأكيد ذلك وتقريره، بقوله

تعالى: ﴿ اوَقُضِيَ الأَمْرُ ﴾، ثم ذِكر ما هو فائدة هذه الأمور وهو (استوت على الجودي)، ثم (إضمار السفينة) قبل الذكر، كما هو شرط الفخامة والدلالة على عظم الشأن، ثم مقابلة (قيل) في الخاتمة، (بقيل) في الفاتحة ؟ أفترى لشيء من هذه الخصائص التي تملؤك بالإعجاز روعة، وتُحضرك عند تصورها هيبة، تحيط بالنفس من أقطارها تعلقاً باللفظ من حيث هو صوت مسموع، وحروف تتوالى في النطق؟ أم كل ذلك لما بين معاني الألفاظ من الاتساق العجيب ؟ "(الجرجاني عبد القاهر، د. ت، 45-46).

ثم يسوق لنا الشيخ دليلاً آخر على أنَّ الكلمة لا يحكم عليها بالفصاحة أو عدمها، إلاَّ من خلال وجودها في السياق، فأتى بلفظ (أخدع) في ثلاثة أبيات، فكان لها في مكانين حسن ومزية، وفي الموقع الثالث قبحٌ ورزية، وهو في هذا الدليل يشرك ?أيضاً ? الميزان النفسي فقال: " مما يشهد لذلك أنك ترى الكلمة تروقك وتؤنسك في موضع،ثم تراها بعينها تثقل عليك وتوحشك في موضع آخر،كلفظ " الأخدع " في بيت الصمة القشيري (أبو تمام،1401هـ، 4/2 رقم460):

تَلَفَّتُ نَحــوَ الحَيِّ حَــتَّى وَجَــدْتُنِي
وَجِــعْتُ مِنَ الإِصْـغَـاءِ لِيـتـاً وَأَخْـدَعَـا

وبيت البحتري (البحتري، 1383هـ، 106/1):

وَإِنِّي وَإِنْ أَبْلَغْتَنِي شَرَفَ الغِنَى
وَأَعْتَقْتَ مِنْ رِقِّ المَطَامِعِ أَخْدَعِي

فإنَّ لها في هذين المكانين ما لا يخفى من الحسن، ثم إنك تتأملها في بيت أبي تمام(أبو تمام،1396هـ،405/2):

يَا دَهْرُ قَوِّمْ مِنْ أَخْدَعَيكَ فَقَدْ
أَضْجَجْتَ هَذَا الأَنَامَ مِنْ خُرُقِكْ

فتجد لها من الثقل على النفس، ومن التنغيص والتكدير، أضعاف ما وجدت هناك من الروح والخفة والإيناس والبهجة (الجرجاني عبد القاهر، د. ت، 46-47).

3- **الدعامة الثالثة:** -

- توخي معاني النحو:

بعد أن أثبت الشيخ عبد القاهر بأنَّ (لا نظم في الكلم ولا ترتيب، حتى يعلق بعضها ببعض، ويُبنى بعضه على بعض، وتجعل هذه بسبب من تلك) (الجرجاني عبد القاهر، د. ت، 55). وأنَّ الألفاظ تتوالى في النطق بحسب توالي معانيها في النفس. نراه ينتقل إلى شرح وبيان الدعامة الثالثة التي أقام عليها نظريته، وهي كيف تتم عملية الربط هذه، وما الطريقة في تكوين هذه العلاقة؟ فيؤكد، أن ليست هناك طريقة سوى، توخي معاني النحو والإعراب، يقول: (وإذا كان كذلك فبنا أن ننظر إلى التعليق فيها، والبناء، وجعل

الواحدة منها بسبب من صاحبتها، ما معناه وما محصوله ؟ وإذا نظرنا في ذلك، علمنا أن لا محصول لها، غير أن تعمد إلى اسم فتجعله فاعلاً لفعل، أو مفعولاً، أو تعمد إلى اسمين فتجعل أحدهما خبراً عن الآخر، أو تتبع الاسم اسماً على أن يكون الثاني صفة للأول، أو تأكيداً له، أو بدلاً منه، أو تجيء باسم بعد تمام كلامك، على أن يكون صفة، أو حالاً، أو تمييزاً، أو تتوخى في كلام، هو لإثبات معنى أن يصير نفياً، أو استفهاماً أو تمنياً، فتدخل عليه الحروف الموضوعة لذلك أو تريد في فعلين أن تجعل أحدهما شرطاً في الآخر فتجيء بهما بعد الحرف الموضوع لهذا المعنى، أو بعد اسم من الأسماء التي ضُمِّنَت معنى ذلك الحرف وعلى هذا القياس) (الجرجاني عبد القاهر، د. ت، 55).

ويقول في موضع آخر: (اعلم أن ليس " النظم " إلا تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه "علم النحو"، وتعمل على قوانينه وأصوله، وتعرف مناهجه التي نُهجت، فلا تزيغ عنها وتحفظ الرسوم التي رسمت لك، فلا تُخِل بشيء منها.

وذلك أنَّا لا نعلم شيئاً يبتغيه الناظم بنظمه، غير أن ينظر في وجوه كل باب وفروقه فينظر في " الخبر " إلى الوجوه التي تراها في قولك: (زيد منطلق)، و (زيد ينطلق) و (ينطلق زيد)، و (منطلق زيد)، و (زيد المنطلق)، و (المنطلق زيد)، و (زيدٌ هو المنطلق) و (زيدٌ هو منطلق).

وفي (الشرط والجزاء) إلى الوجوه التي تراها في قولك: (إن تخرج أخرج)، و (إن خرجتَ خرجتُ)، و (إن تخرج فأنا خارج)، و (أنا خارج إن خرجت)، و (أنا إن خرجت خارج).

وفي (الحال) إلى الوجوه التي تراها في قولك: (جاء زيد مسرعاً وجاءني يُسرع)

و (جاءني وهو مسرع أو وهو يسرع)، و (جاءني قد أسرع)، و (جاءني وقد أسرع).

فيعرف لكل من ذلك موضعه، ويجيء به حيث ينبغي له.

وينظر في (الحروف) التي تشترك في معنىً، ثم ينفرد كل واحد منها بخصوصية في ذلك المعنى، فيضع كُلاً من ذلك في خاص معناه، نحو أن يجيء بـ (ما) في نفي الحال، بـ (لا) إذا أراد، نفي الاستقبال، و بـ (إن) فيما يترجح بين أن يكون وأن لا يكون، وبـ (إذا) فيما علم أنه كائن.

وينظر في (الجمل) التي تُسرد، فيعرف موضع الفصل فيها من موضع الوصل، ثم يعرف فيما حقه الوصل موضع (الواو)، من موضع (الفاء)، وموضع (الفاء) من موضع (ثم) وموضع (أو)، من موضع (أم)، وموضع (لكن) من موضع (بل).

ويتصرف في التعريف والتنكير، والتقديم والتأخير، في الكلام كله، وفي الحذف والتكرار، والإضمار والإظهار، فيصيب بكل من ذلك مكانه، ويستعمله على الصحة وعلى ما ينبغي له.

هذا هو السبيل، فلست بواجد شيئاً يرجع صوابه إن كان صواباً، وخطؤه إن كان خطأً إلى (النظم)، ويدخل تحت هذا الاسم، إلاَّ وهو معنى من معاني النحو، قد أصيب به موضعه ووضع في حقه، أو عومل بخلاف هذه المعاملة، فأزيل عن موضعه، واستعمل في غير ما ينبغي له فلا ترى كلاماً قد وصف بصحة نظم أو فساد، أو وصف بمزية وفضل فيه، إلا وأنت تجد مرجع تلك الصحة، وذلك الفساد، وتلك المزية، وذلك الفضل، إلى معاني النحو وأحكامه، ووجدته يدخل في أصل من أصوله، ويتصل بباب من أبوابه) (الجرجاني عبد القاهر، د. ت، 81-82).

ويكرر هذا القول في أكثر من موضع في كتابه الدلائل، غير أنه - في النص التالي - يضيف بُعداً جديداً في طريقة إثباته، عن طريق الإتيان بالنقيض والضد، أو الوجه العكسي للنظرية، ليكون الأمر أكثر وضوحاً. فالأمر يتضح بنقيضه وضده، فيطالب بإزالة أجزاء التأليف والنظم عن مواضعها وعدم توخي معاني النحو في النظم، قال: (ومما ينبغي أن يعلمه الإنسان ويجعله على ذكر، أنه لا يتصور أن يتعلق الفكر بمعاني الكلم أفراداً ومجردة من معاني النحو، فلا يقوم في وهم، ولا يصح في عقل أن يتفكر متفكر في معنى (فعل)، من غير أن يريد إعماله في (اسم) ولا أن يتفكر في معنى (اسم)، من غير أن يريد أعمال (فعل) فيه، وجعله فاعلاً له أو مفعولاً، أو يريد فيه حكماً سوى ذلك من الأحكام، مثل أن يريد

جعله مبتدأ، أو خبراً، أو صفه، أو حالاً، أو ما شاكل ذلك.

وإن أردت أن ترى ذلك عياناً فاعمد إلى أي كلام شئت، وأزل أجزاءه عن مواضعها وضعها وضعاً يمتنع معه دخول شيء من معاني النحو فيها، فقل في:

(قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزلٍ)

(من نبك قفا حبيب ذكرى منزل)، ثم انظر هل يتعلق معك فكرٌ بمعنى كلمة منها) (الجرجاني عبد القاهر، د. ت، 410).

ثم يبرهن لنا الشيخ عبد القاهر على فضل النظم، وكيف أن توخي معاني النحو فيه، يجعل الكلام سبيكة واحدة لا يمكن تقسيمها أو تجزيئها، فإذا حاولنا ذلك، عمدنا إلى هدم الصورة الممتدة التي نسجها النظم: (واعلم أن مثل واضع الكلام، مثل من يأخذ قطعاً من الذهب أو الفضة، فيذيب بعضها في بعض، حتى تصير قطعة واحدة، وذلك أنك إذا قلت: (ضرب زيدٌ عمراً، يوم الجمعة، ضرباً شديداً، تأديباً له) فإنك تحصل من مجموع هذه الكلم كلها، على مفهوم هو معنىً واحدٌ لا عِدة معانٍ، كما يتوهمه الناس، وذلك لأنك لم تأتِ بهذه الكلم لتفيده أنفُس معانيها، وإنما جئت بها، لتفيده وجوه التعلق التي بين الفعل الذي هو (ضربَ)، وبين ما عمل فيه، والأحكام التي هي محصول التعلق.

وإذا كان الأمر كذلك، فينبغي لنا أن ننظر في المفعولية من

(عمرو)، وكون (يوم الجمعة) زماناً للضرب، وكون (الضرب ضرباً شديداً)، وكون (التأديب) علَّة للضرب.

أيتصور فيها أن تُفْرَدَ عن المعنى الأول الذي هو أصل الفائدة، وهو إسناد (ضربَ) إلى (زيد) وإثبات (الضرب) به له، حتى يُعقل كون (عمرو) مفعولاً به، وكون (يوم الجمعة) مفعولاً فيه، وكون (ضرباً شديداً) مصدراً، وكون (التأديب) مفعولاً له، من غير أن يخطر لك كون (زيد) فاعلاً للضرب؟

وإذا نظرنا وجدنا ذلك لا يتصور، لأن (عمراً) مفعول لضربٍ وقع من (زيد) عليه و (يوم الجمعة) زمان لضَربٍ وقع من زيد، و (ضرباً شديداً) بيان لذلك الضرب كيف هو ؟ وما صفته ؟، و (التأديب) علة له، وبيان أنه كان الغرض منه، وإذا كان ذلك كذلك، بان منه وثبت أنَّ المفهوم من مجموع الكلم معنىً واحد لا عدة معانٍ، وهو إثباتك زيداً فاعلاً ضرباً لعمرو في وقت كذا، وعلى صفة كذا، ولغرض كذا، ولهذا المعنى تقول: إنه كلام واحد) (الجرجاني عبد القاهر، د. ت، 412-414).

وإذ قد عرفت هذا، فهو العِبرة أبداً، فبيت بشار [5] إذا تأملته وجدته كالحلقة المفرغة التي لا تقبل التقسيم، ورأيته قد صنع في الكلم التي فيه ما يصنعه الصانع حين يأخذ كِسَراً من الذهب

(١) كأنَّ مثار النقع فوق رؤوسنا وأسيافَنَا ليلٌ تهاوى كواكبه

انظر: ديوان بشار بن برد: 335/1.

فيذيبها ثم يصُبُّها في قالب، ويخرجها لك سواراً أو خلخالاً، وإن أنت حاولت قطع بعض ألفاظ البيت عن بعض، كنت كمن يكسر الحلقة ويفصم السوار. وذلك أنه لم يرد أن يُشبِّه (النقع) بالليل على حدةٍ، و (الأسياف) بالكواكب على حِدَةٍ، ولكنه أراد أن يشبه النقع والأسيافُ تجول فيه بالليل في حال ما تنكدر الكواكب وتتهاوى فيه. فالمفهوم من الجميع مفهوم واحد، والبيت من أوله إلى آخره كلام واحد.

. .. فينبغي أن تنظر إلى الذي به اتحدت المعاني في بيت بشار وإذا نظرنا لم نجدها اتحدت إلاَّ بأن جعل (مُثَار النقع) اسم (كأنَّ)، وجعل الظرف الذي هو (فوق رؤوسنا) معمولاً (لمثار) ومعلَّقاً به، وأشرك (الأسياف) في (كأن) بعطفه لها على (مثار)، ثم بأن قال: (ليل تهاوى كواكبه) خبراً (لكأنَّ). . "(الجرجاني عبد القاهر، د. ت، 414-415).

وشرحاً لنظرية (النظم)، أسوق مثالاً تطبيقياً تحليلياً لحسن النظم أورده الشيخ عبد القاهر لهذا الغرض، ولكنه قبل أن يقوم بعملية التحليل، نبهنا قبل كل شيء إلى مقياس نفسي فني يساعد على معرفة النظم الحسن، يتمثل في الهزة والطرب التي يثيرها حسن النظم في النفس.

ويوسع الشيخ قاعدة حسن النظم، فيدخل في دائرتها جميع أبواب البلاغة، فالاستعارة والكناية والتجنيس، أو أي باب من أبواب

البلاغة ليس لها فضل ولا مزية ولا حسن إلا إذا كانت حسنة النظم، يقول:

(وإذ قد عرفت ذلك، فاعمد إلى ما تواصفوه بالحسن، وتشاهدوا له بالفضل، ثم جعلوه كذلك من أجل (النظم خصوصاً دون غيره مما يستحسن له الشعر، أو غير الشعر، من معنىً لطيف، أو حكمة، أو أدب، أو استعارة، أو تجنيس، أو غير ذلك مما لا يدخل في النظم، وتأمَّله فإذا رأيتك قد ارتحت واهتززت، واستحسنت، فانظر إلى حركات الأريحية مم كانت وعند ماذا ظهرت؟ فإنك ترى عياناً أنَّ الذي قلت كما قلت.

اعمد إلى قول البحتري (البحتري، 1400هـ، 107/1):

بَلَونَا ضَرائِبَ مَنْ قَدْ نَرَى
فَمَا إِنْ رَأَينَا لِفَتْحٍ ضَرِيبا
هُوَ المَرءُ أَبْدَتْ لَهُ الحَادِثَا
تُ عَزْماً وَشِيكاً وَرَأياً صَلِيبا
تَنَقَّلْ فِي خُلُقَيْ سُؤدَدٍ
سَمَاحاً مُرَجَّى وَبَأْساً مَهِيبَا
فَكَالسَّيفِ إِنْ جِئْتَهُ صَارِخاً
وَكَالْبَحْرِ إِنْ جِئْتَهُ مُسْتَثِيبَا

فإذا رأيتها قد راقتك، وكثرت عندك، ووجدت لها اهتزازاً في نفسك، فعد فانظر في السبب واستقص في النظر، فإنك تعلم

ضرورة، أنْ ليس إلاَّ أنه قدم وأخر، وعرَّف ونكَّر وحذف وأضمر، وأعاد وكرر، وتوخَّى على الجملة وجهاً من الوجوه التي يقتضيها (علم النحو)، فأصاب في ذلك كله، ثم لَطَّف موضع صوابه، وأتى مأتىً يوجب الفضيلة) (الجرجاني عبد القاهر، د. ت، 84-85).

ثم يأخذ الشيخ عبد القاهر بوضع أيدينا على المواقع التي حسن عندها النظم، فإذا تأملناها وجدنا أن سببها، هو توخي معاني النحو، يقول: (أفلا ترى أن أول شيء يروقك منها قوله: (هو المرءُ أبدت له الحادثات)، ثم قوله: (تنقل في خُلقي سؤدد) بتنكر (السؤدد) وإضافة (الخلقين) إليه، ثم قوله (فكالسيف)، وعطفه بالفاء مع حذفه المبتدأ، لأنَّ المعنى لا محالة: فهو كالسيف، ثم تكريره (الكاف) في قوله: (وكالبحر)، ثم أن قرن إلى كل واحد من التشبيهين شرطاً جوابه فيه، ثم أن أخرج من كل واحدٍ من الشرطين حالاً، على مثال ما أخرج من الآخر، وذلك قوله: (صارخاً) هناك، و(مستثيباً) ههنا؟

لا ترى حسناً تنسبه إلى النظم ليس سببه ما عددتُ، أو هو في حكم ما عددتُ، فاعرف ذلك) (الجرجاني عبد القاهر، د. ت، 85-86).

ثم يسوق شاهداً آخر، هو قول إبراهيم بن العباس:

فَلَو إِذْ نَبَا دَهْرٌ وَأَنكَرَ صَاحِبٌ

وسُلِّطَ أَعْدَاءٌ وَغَابَ نَصِيرُ

تَكُونُ عَنِ الأَهْوَازِ دَارِي بِنَجْوَةٍ
وَلَكِنْ مَقَادِيرٌ جَرَتْ وَأُمُورُ
وَإِنِّي لأَرْجُو بَعْدَ هَذَا مُحَمَّداً
لأَفْضَلَ مَا يُرْجَى أَخٌ وَوَزِيرُ

ويأخذ الشيخ في شرح دور النحو في النظم في هذه الأبيات كما فعل في الأبيات السابقة (الجرجاني عبد القاهر، د. ت، 86).

ويلفتنا الشيخ عبد القاهر إلى أمرٍ مهم في نظرية النظم، فليس معنى مراعاة النحو أن يكتسب الكلام نفس الخاصية، ويكون له نفس التأثير في كل موطن، فالتنكير والتعريف مثلاً يختلف دورهما وتأثيرهما في النظم، بحسب الموقع والغرض الذي أتيا من أجله، لذا، لا يمكن أن تحدد للتنكير أو التعريف وجوهاً وفروقاً بعينها، بل، ليس لها غاية تقف عندها، ولا نهاية تحدها. . يقول:

(وإذ قد عرفت أنَّ مدار أمر (النظم) على معاني النحو، وعلى الوجوه والفروق التي من شأنها أن تكون فيه، فاعلم أنَّ الفروق والوجوه كثيرة ليس لها غاية تقف عندها، ونهاية لا تجد لها ازدياداً بعدها، ثم اعلم أن ليست المزيَّةُ بواجبة لها في أنفسها،ومن حيث هي على الإطلاق، ولكن تعرِض بسبب المعاني والأغراض التي يوضع لها الكلام، ثم بحسب موقع بعضها من بعض واستعمال بعضها مع بعض.

تفسير هذا: أنه ليس إذا راقك التنكير في (سؤدد) من قوله (تنقَّل في خلقي سؤدد) وفي (دهر) من قوله (فلو إذ بنا دهر)، فإنه يجب أن يروقك أبداً، وفي كل شيء، ولا إذا استحسنت لفظ ما لم يُسَمَّ فاعله في قوله: (وأُنكر صاحب)، فإنه ينبغي أن لا تراه في مكان إلاَّ أعطيته مثل استحسانك هاهنا، بل ليس من فضل ومزية، إلاَّ بحسب الموضع، وبحسب المعنى الذي تريد والغرض الذي تؤمُّ، وإنما سبيل هذه المعاني سبيل الأصباغ التي تُعمَل منها الصور والنقوش فكما أنك ترى الرجل قد تَهَدَّى في الأصباغ التي عمل فيها الصورة والنقش في ثوبه الذي نسج إلى ضرب من التخير والتدبر في أنفس الأصباغ، وفي مواقعها ومقاديرها، وكيفية مزجه لها، وترتيبه إياها، إلى ما لم يتهدَّ إليه صاحبه، فجاء نقشه من أجل ذلك أعجب، وصورته أغرب.

كذلك حال الشاعر، والشاعر في توخيهما معاني النحو ووجوهه، التي علمت أنها محصول (النظم) (الجرجاني عبد القاهر، د. ت، 88).

ويستمر الشيخ في سوق شواهد محاسن النظم فيأتي بأمثلة لحسن مواقع الفاء(الجرجاني عبد القاهر، د. ت، 89)،. ومواقع الفاء وثم (الجرجاني عبد القاهر، د. ت، 90).

وإثباتاً لنظريته نراه أتى قبل ذلك بأمثلة لفساد النظم، ليبين أثر النحو في التركيب وإبراز المعنى (الجرجاني عبد القاهر، د. ت، 83).

وفي آخر الكتاب يعقد باباً للموازنات، جعله قسمين، القسم الأول (الموازنة بين المعنى المتحد واللفظ المتعدد).

والقسم الثاني: الموازنة بين الشعرين والإجادة فيهما من الجانبين (الجرجاني عبد القاهر، د. ت، 489-510).

كل ذلك إظهاراً لقيمة النظم وأثره في التركيب. وهذا الفصل كأنه تدريب وتمرين على نظريته.

هذا ملخص وموجز لنظرية الشيخ عبد القاهر الجرجاني، وما تنضوي عليه من فوائد بلاغية ونقدية ولغوية شكلت منهجاً تذوقياً تحليلياً رائعاً لنقد الآثار الأدبية، ودليلاً مضيئاً لفهم مواطن الإعجاز القرآني.

3- أهمية نظرية الشيخ عبد القاهر التحليلية في التذوق البلاغي:

إنَّ نظرية النظم التي أصلها الشيخ عبد القاهر في كتابه (دلائل الإعجاز)، تعد حقيقة منهجاً تحليلياً رائعاً في نقد الآثار الأدبية، وإن لم يكن هو مبتكرها، وإنما عُدَّ صاحبها، واشتهر بها، لأنه وسَّع مدلولها، ومدَّ آفاقها، وبسط القول فيها، وقَعَّد لها القواعد، واستنبط لها الأصول ودعمها بالشواهد.

فمعظم النظريات الخالدة في العلم، لا تعدم أن تجد لها سوابق في إشارات المتقدمين وكتاباتهم، ولكن الفكرة التي تستحق اسم نظرية، هي ما كان لصاحبها فضل عرضها وتحقيقها وتعليلها،

واستقراء أمثلتها، وإزالة ما يعرض لها من شبهات، ومحاولة تطبيقها في ميدان الدراسة الخاصة (أحمد، 1404هـ، 124).

وترجع أهمية نظرية الشيخ عبد القاهر، إلى أنها تدعو المتذوق إلى التغلغل في أعماق النص وعدم الوقوف عند ظواهر اللفظ، بل لا بد من إدارك العلاقات بين الألفاظ، لأنَّ اللغة عند الشيخ هي مجموعة من العلاقات، وليست مجموعة ألفاظ، وفي ذلك يقول: " اعلم أنَّ هنا أصلاً أنت ترى الناس فيه في صورة من يعرف من جانب وينكر من آخر، وهو أنَّ الألفاظ المفردة التي هي أوضاع اللغة، لم توضع لتعرف معانيها في أنفسها، ولكن لأن يضم بعضها إلى بعض، فيعرف فيما بينها فوائد.."(الجرجاني عبد القاهر، د. ت، 539).

" وعلى الرغم من أنَّ منهج عبد القاهر، يحفل باتباع السابقين في الدرس النحوي كأمثال سيبويه، الذي يعتد به كثيراً في المرجعية، وأمثال أبي علي الفارسي، الذي يعده شيخه الأول - على الرغم من كل هذا -، فإنَّ عبد القاهر يربط الدراسة النحوية واللغوية معاً بعامل النظم،ويربط عامل النظم بالعامل النفسي في عملية إنتاج الكلام" (المطعني، 1413هـ، 151).

" ولهذا كان منهج عبد القاهر ذا خطر عظيم في فهم النصوص ونقدها، منتهياً من كل ذلك إلى نتائج تكاد تشبه القوانين الرياضية لا يكاد يختلف معه فيها منصف، وكان كتابه " دلائل

الإعجاز " فتحاً جديداً في النقد الجمالي، ومن أوضح وأعمق ما كتب في دلائل الإعجاز "(عباس، 1420هـ، 66).

فطريقة الشيخ عبد القاهر التحليلية القائمة على إدراك العلاقات تعد منهجاً علمياً موضوعياً، لأنها لا تجعل الناقد مجرد مستمتع بالأثر الفني أو ناقل لإحساسه فقط، إنما تجعله قادراً على أن يقدم العلل والأسباب لمعقولة لاستمتاعه، وذلك بما يحلله من عناصر، وما يكشفه من خصائص، لا تخرج عما هو بين أيدينا من علاقات لغوية، وما دمنا دائماً مرتبطين بما أمامنا من علاقات، أو سمات فإنَّ أحكامنا ستكون بالضرورة موضوعية، ومن ثمَّ صادقة ونافعة (العشماوي، 1399هـ، 371).

إنَّ هذا المذهب الذي نادى به الشيخ، يشهد لصاحبه بالعبقرية المنقطعة النظير، وهو أصح وأحدث ما وصل إليه علم اللغة الحديث، متمثلاً في مذهب العالم السويسري دي سوسير (مندور، 1932هـ، 333-334).

وهذا المنهج الذي وضعه عبد القاهر الجرجاني، كفيل بأن يجدد فهمنا لتراثنا الأدبي كله وإذا لم يكن بد من تدريس شيء نسميه البلاغة، فلتكن بلاغة دلائل الأعجاز، ونحن لا يهمنا من هذا المذهب القويم، إلاَّ طريقة استخدامه كأس لمنهج لغوي (فيولوجي5) (في نقد النصوص(مندور، 1392هـ، 334-339).

ونحن نستطيع بكل ثقة أن نعمم هذا المنهج في أعمالنا النقدية، ونحن مطمئنون لأنه - وبحق - أساس لغوي فقهي (مندور، 1392هـ، 333).

" والواقع أنَّ البيان العربي لم يظفر بمثل هذا الأسلوب التحليلي، الذي فيه مثل هذا البحث العميق، والاستقصاء الدقيق، في أية مرحلة من مراحل حياته، وهذه الدراسة في حقيقتها دراسة نقدية عملية لأساليب التعبير، وبيان الصحيح منها والفاسد، والقوي والضعيف، أكثر منها دراسة نظرية قاعدية بلاغية.

حقاً إنَّ عبد القاهر لم يهمل القاعدة أساساً للدراسة، ولكن تلك القاعدة تنزوي وتتضاءل أمام هذا البحث العملي المتسع الأطراف، وتعود فلا تجد أمامك إلاَّ أصداء لهذا الفكر المنظم، تملك عليك جهات الحس والذوق، وتعمل ذهنك حتى تستطيع أن تساير هذا التيار العقلي الذي يكشف لك عن المعاني التي أوغل في تبيينها هذا الذهن العميق الكبير، ولا يسعك إلاَّ التسليم بهذا التفكير الصحيح والمنطق السليم (طبانة، 1381هـ، 176).

وتظهر أهمية نظرية الشيخ عبد القاهر وطريقته التحليلية، من الدراسات الكثيرة التي قامت حول منهجه ونظريته، التي خدمت الدراسات البلاغية والنقدية والنحوية واللغوية.

فقد أكدت دراسة وليد مراد، بأنَّ الآراء جميعها التقت على الاعتراف بالفضل والريادة والسبق في مضمار الفكر اللغوي عند

العرب، لعبد القاهر ونظريته اللغوية بما تضمنته، وستبقى أساساً للدراسات اللغوية والنقدية والبلاغية والأدبية، وستبقى الأجيال تذكر فضله، وتبحث في نتاج فكره من أجل انطلاقات لغوية حديثة تناسب تطورات العصر ومتطلباته (أنظر: 53 من البحث).

وذكرت دراسة محمد عباس، أنَّ عبد القاهر استطاع أن يجول بالمحاولة المنهجية إلى أبعاد غير معهودة في دراسة الأدب واللغة، بحصافة الرأي وخصوبة الفكرة، وحضور المشاركة في عملية التواصل الفكري، والبحث والتنقيب عن خفايا الأدب ودلالته اللغوية، والبلاغية، والفنية عامة أعطى بها للثقافة العربية خلاصة جهد أوفى بها إلى الكمال، فكان عطاؤه تراثاً إنسانياً رائداً في اتجاهات التطور في حقول البحث الأدبي وفروعه (انظر: 59 من البحث).

وكذلك ينادي الدكتور أبو موسى في جميع كتبه بضرورة تطبيق طريقة الشيخ عبد القاهر الجرجاني التحليلية، وقد قام هو شخصياً بتطبيقها في كثير من دراساته وكتاباته، وما سبق أن عرضته له من دراسات (انظر: 42، 43، 58 من البحث) لهو دليل واضح على دعوته الصريحة لهذا المنهج.

كما أشادت دراسة عبد العزيز عرفة بطريقة الشيخ عبد القاهر الجرجاني، وأوصت بضرورة تعميمها في الدرس البلاغي، واتخاذها أسّاً ودافعاً لعمل جاد، يقوم بتحليل نصوص أدبنا العربي، وحصر

المعاني الشعرية، والصور التي برز فيها، وطريقة كل شاعر، أو كاتب في تصوير إحساساته ومعاناته وتجاربه (انظر: 48 من البحث).

كذلك أوصت دراسة أحمد الصاوي، بضرورة اعتماد المنهج التطبيقي في دراسة البلاغة والنقد الأدبي، سبيلاً إلى اكتساب خبرة تذوقية ومهارات نامية، في اتجاه فهم حقيقي لوظيفة النص الأدبي وطبيعة مكوناته التي تمثل في الحقيقة معادلاً فنياً لواقعنا النفسي والشعوري، وذلك من خلال منهج الشيخ عبد القاهر التحليلي، الذي جعل من (التكوينات التعبيرية)، أو من (نظرية التعبير) الأساس في تشريح النص وتفسيره للقارىء. وهو الفيصل في تقويم خبرة الأديب التي ينبغي أن تكون متفردة بين سائر الخبرات (انظر: 51 من البحث).

إلى جانب ذلك أوصت دراسة البدراوي زهران، بتطبيق منهج عبد القاهر اللغوي على دراسة النصوص الأدبية دراسة لغوية، لأن هذا المنهج هو أحدث ما وصل إليه علم اللغة الأوروبي في العصر الحديث (انظر: 55 من البحث).

كما توصلت دراسة نجاح الظهار إلى أنَّ الشيخ عبد القاهر ترك للنقاد أروع طريقة تمكنهم من التذوق السليم، والنقد الهادف عن طريقة نظرية النظم، التي بنى عليها كتابه الدلائل التي تعد - حقيقة - منهجاً تحليلياً رائعاً في كشف الطاقات الأدبية.

كما نحا الشيخ عبد القاهر بمنهجه التحليلي منحى جديداً، فبين أثر النفس والتأمل الباطني في دراسة الأثر الأدبي.

كذلك عني الشيخ بالناحية النقدية عناية تجعله من أوائل نقاد الأدب العربي، فقد

استطاع من خلال تحليلاته وتوجيهاته القيمة، تربية التذوق البلاغي عند الناقد، فطالب باتخاذ الذوق الموضوعي منهجاً عاماً في كل عملية نقدية.

وقد أوصت الدراسة، بضرورة تطبيق منهج الشيخ التحليلي في الدراسات البلاغية والنقدية، وتعميمه وتدريب الطلاب على التذوق والتحليل، والابتعاد عن الطرق الجافة التي تضطر الطالب إلى الحفظ وترديد المصطلحات دون وعي وفهم، فيفقد بذلك القدرة على التأمل والتذوق الموضوعي، فينفر بالتالي من دراسة هذا العلم الجليل، فلا يتمكن من متعة تذوق الأسلوب القرآني وإدراك إعجازه البلاغي (انظر: 45 من البحث).

هذه مقتطفات من الدراسات التي أظهرت قيمة طريقة الشيخ عبد القاهر التحليلية وأبانت أهميتها وفضلها في الدرس البلاغي، غير أنَّ جميع الدراسات التي قامت حول الشيخ عبد القاهر على اختلاف طرقها، ومناهجها وأهدافها كانت تشيد بطريقة أو بأخرى، بمنهج الشيخ عبد القاهر، وبطريقته التحليلية، وتدعو إلى اتباعها.

ثالثاً: - الذوق:

1- تعريف الذوق لغة واصطلاحاً:

الذوق في اللغة: مصدر ذاق الشيء يذوقه ذَوقاً، وذَواقاً ومَذَاقاً، ومنه - أيضاً - ذُقت الطعام وتذوقته شيئاً بعد شيء، وهو مر المذاق، وما ذقت اليوم ذَواقاً. هذا على الحقيقة.

ومن المجاز: ذُقت فلاناً وذُقت ما عنده، وتقول: ذقت الناس وأكلتهم، وزنتهم

وكلتهم، فما استطبت طعومهم، ولا استرجحت حلومهم، وهو حسن الذوق للشعر إذا كان مطبوعاً عليه.

والذوق يكون فيما يكره ويحمد، قال تعالى: ﴿ **فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ** ﴾ [**النحل**: ١١٢].

أي ابتلاها بسوء ما خبرت من عقاب الجوع والخوف، ويقال: ذُق هذه القوس، أي انزع فيها لتخبُر لينها من شدتها.

قال الشماخ (الذبياني،1397هـ،190):

فَـذَاقَ فَـأَعْطَتْـهُ مِنَ اللينِ جَـانِباً
كَـفَى وَلَهَـا أَنْ يُغـرِقَ النَّبْلَ حَاجِـزُ[6]

أي لها حاجز يمنع من إغراق أي منه لين وشدة. وذقت القوس،

(١) (رواية الديوان: (وذاق)، بدلاً من فذاق، و (السهم) بدلاً من النبل.

إذا جذبت وترها لتنظرما شدتها (الزمخشري، 1399هـ، (ذوق) 147، ابن منظور، د. ت، (ذوق) 10/111-112)

ومن هذا المعنى اللغوي يتولد المعنى الاصطلاحي للذوق، فكما أنّ الذوق في اللغة هو إدراك طعم الأشياء حسياً باللسان، فإنه في الاصطلاح معالجة الأشياء فنياً بالنفس، للتَّعرُّف على ما فيها من جمال، فهو بإيجاز: القوة التي يُقدَّر بها الأدب من حيث هو فن (زكي، 1401هـ، 77).

بل إننا من معنى الذوق اللغوي نستطيع أن نضيف بُعداً آخر للذوق، وهو معرفة الجيد من الرديء، أو القبيح من الحسن، وذلك من قول اللغويين: إن الذوق يكون فيما يكره ويحمد ويقال: ذُق هذه القوس أي انزع فيها لتخبر لينها من شدتها.

فالذوق البلاغي هو: (قدرة صاحب الطبع الأدبي، والذكاء اللمَّاح، والقريحة النفاذة على بيان المزايا البلاغية التي تحدث في النظم، بسبب الفروق والوجوه التي تكون بين كلام وكلام وشعر وشعر، فيقف على أسباب الجودة ليحتذيها،وعلى أسباب الرداءة ليجتنبها في تأليفه ونقده) (عرفة، 1403هـ، 3-4).

وقريب من هذا التعريف قولنا: إنَّ الذوق الأدبي في مفهوم الأدباء والبلاغيين والنقاد: (ملكة يقتدر بها على التمييز بين الجيد والرديء، وتعين صاحبها تلك الملكة، على أخذ النافع وإطراح غيره،

والحكم على الجيد واتباعه، وإبراز الشيء واجتنابه، أو رسم الوسائل التي تؤدي إلى صلاحه) (أبو علي, 1984م، 161-162).

فالذوق الأدبي، وسيلة من وسائل كشف جماليات فن القول العربي، ووجه من وجوه إبراز إعجاز القرآن الكريم (أبو علي، 1984م، 162).

فالذوق إذن صورة من صور تفاعل العملية الأدبية مع النفس الإنسانية، شعوراً وحساً وفكراً وعاطفة.

ونستطيع أن نخلص من ذلك إلى القول: بأنَّ الذوق الأدبي بين الدراسات القرآنية والبلاغية، يحتاج إلى تجلية المواطن الجيدة وغيرها، التي حكم عليها النقاد والبلاغيون العرب، ثم الوجوه التي أنكرها أصحاب الدراسات القرآنية، تلك التي تكون نابية غليظة في مفهوم البيان القرآني، والذوق العربي (أبو علي، 1984م، 164).

وقد عرَّف ابن خلدون الذوق بأنه حصول ملكة البلاغة للسان، وأنَّ هذه الملكة تحصل بمخالطة كلام العرب، والسير على نهجهم في نظم الكلام وتركيبه (ابن خلدون، د. ت، 493).

وكأنه يرمي بذلك إلى أنَّ ملكة الذوق مكتسبة، وهو بذلك يختلف عن الشيخ عبد القاهر الجرجاني، الذي يرى أنَّ الذوق استعداد فطري يصقل بالتثقيف والمران.

غير أنَّ النظرة الأكثر صواباً، القول بأنَّ الذوق الأدبي لا يقف عند التوجيه في مفهومه من حيث إنه فطري طبعي، أو وراثي، أو مكتسب، إنما يُفهم في ثلاث مستويات:

الأول : قابلية الإنسان أن يكون صاحب ذوق.

الثاني: استعداده لتقبل المهارات التي تنمي الذوق.

الثالث: أن يهذب الإنسان ذوقه بالدرس، والمراس، والتجربة، والدربة (أبو علي، 1984م، 162).

وهذا لا ينفي أنَّ صاحب الذوق الفطري إذا صقله بالدرس والمران والتثقيف، وداوم على ذلك، يكون أرفع قدراً، وأعظم اقتداراً، من صاحب الذوق المكتسب وإن صقله بالدرس والمران - أيضاً -.

- مفهوم الذوق الجمالي عند الشيخ عبد القاهر الجرجاني والمهارات التذوقية المستخلصة منه:

إنَّ الوقفة المتأنية أمام رقي اللغة العربية في عصورها الأولى، كان سببها طبع العربي الأصيل، واستعداده الأدبي السليم، الذي اشتهر به، فتمكن من فهم ومحاكاة ما يطرق أُذنه من جواهر اللغة في كل مكان ذهب إليه، فالبيئة النقية من اللحن، التي لا يسمع فيها المرء إلاَّ فصيح الألفاظ، وبليغ المعاني، هي القادرة على تكوين الذوق البلاغي السليم، الذي ينتج الكلام الفني الرفيع، والحكم الأدبي السليم، إذا صادف طبعاً عربياً أصيلاً، وذكاء فطرياً رفيعاً.

لقد كانت اللغة العربية السائدة في المجتمع العربي الأول بِحِكَمِها، وشواردها، وشعرها وتجاربها، هي لغة الأدباء والبلغاء الذين يتمتعون بذوق بلاغي منقطع النظير.

وكُتب التراث العربي، تثبت لنا عناية العرب بترشيد الذوق، وصقله والعناية به. وقد أخذ هذا الترشيد مظاهر متنوعة، تتمثل فيما كان يدور من نقاش بين الرواة، والشعراء، والمتأدبين وما كان في مجالس الأدب، التي كانت تعقد في الأسواق، ودور الخلفاء والأفراد، والأثرياء.

وثمة حدث مهم حصل في جزيرة العرب، وأحدث ثورة فكرية هائلة ورقياً أدبياً منقطع النظير، ذلك هو نزول القرآن الكريم (أبوعلي، 1984م، 6-7).

وفي العصر الأموي والعباسي، اتسعت دائرة الفتوحات الإسلامية، مما نتج عنه اختلاط العرب بالأمم الأخرى، وتأثرهم بالثقافات المختلفة، فقامت حركة ثقافية نشطة، كثر لأجلها اللغويون، والرواة، والنحاة، الذين كان لهم الفضل - بعد الله - في صيانة اللغة وحفظها فازدهرت حركة الترجمة والتدوين، واتخذ ترشيد الذوق البلاغي مظهراً آخر، يتمثل في تأليف العلماء للكتب، وتدوين آرائهم وأفكارهم وعلومهم النقدية والذوقية. كما جمعوا اللغة وآدابها وتاريخها، ووضعوا قواعد نحوها وصرفها، وكانت

نشأة هذه العلوم، عاملاً مهماً في اتساع مجال البلاغة والنقد الأدبي. فاهتم النقاد بتربية الذوق البلاغي، ونادوا بضرورة تثقيفه وتدريبه. فهذا ابن سلام الجمحي (ت 231هـ) يفطن إلى هذه الضرورة، ويقر باستخدام الذوق المدرب المثقف في تقييم النص الأدبي، غير أن الذوق المدرب عنده، هو الذي يستطيع أن يشعر بمواطن الحسن والقبح بلا صفة ينتهى إليها، ولا علم يوقف عليه (الجمحي، 1394هـ، 1/5-6)، مما يشير إلى أن مفهومه للذوق ما زال في طور الذاتية.

ويلتقي القاضي الجرجاني (ت 366هـ) مع ابن سلاَّم في مفهوم الذوق، حيث رأى أن الذوق المعترف به في تقييم النصوص، هو الذوق المثقف البعيد عن الهوى والعصبية، وأشار إلى أن هذا الإحساس قد لا تجد له سبباً، وكلما تستطيعه هو أن تحيله على باطن تحصله الضمائر (الجرجاني علي، د. ت، 412).

فابن سلام والقاضي الجرجاني اهتما بالذوق، وقدما للناقد الأدوات النقدية التي تمكنه من ذلك الذوق، التي منها: العلم والثقافة والدربة والممارسة، ولكن لم يتعدى ذوقهما الذاتية في الحكم.

أما الآمدي فكان أكثر تمشياً مع الروح العلمية، فقد أدرك أن الذوق ضربان:

- ذوق يمكن تعليله.
- وذوق حتمي تحيط به المعرفة، ولا تؤديه الصفة (إن من الأشياء أشياء تحيط بها المعرفة، ولا تؤديها الصفة) (الآمدي،د.ت،372-374).

والضرب الثاني يسمح به لذوي الخبرة والدربة والثقافة الواسعة(الآمدي،د.ت،374)،فالخبير بالشعر المعروف بكثرة النظر والارتياد فيه، إذا أصدر رأيه من غير تعليل، لا يحق لأحد أن يطالبه بإيجاد العلة (الآمدي،د.ت،374-375).

أما الخطابي (ت 388هـ)، فلم يرضَ من المعرفة بظاهر السمة دون البحث عن باطن العلة، ولم يقنع في الأمر بأوائل البرهان حتى يستشهد لها دلائل الامتحان، فلم يقبل قول من قال:

(وقد يخفى سببه عند البحث، ويظهر أثره في النفس، حتى لا يلتبس على ذوي العلم والمعرفة به) (الرماني، د. ت، 24).

ومن قال (وقد توجد لبعض الكلام عذوبة في السمع، وهشاشة في النفس، لا توجد مثلها لغيره منه، والكلامان معاً فصيحان، ثم لا يوقف لشيء من ذلك على علة) (الرماني، د. ت، 24).

والخطابي لم يقتنع بمثل هذه الأقوال، وردها قائلاً: (وهذا لا يقنع في مثل هذا العلم، ولا يشفى من داء الجهل به، وإنما هو إشكال أحيل به على إبهام) (الرماني، د. ت، 24-25).

فهو إذاً يرفض مسألة التذوق الذاتي رفضاً باتاً حتى وإن كانت من خبير، وبخاصة في قضية إعجاز القرآن، ففيها لا بد من معرفة العلة، ووجوب إظهارها، حتى يثبت بها الإعجاز.

أما الشيخ عبد القاهر الجرجاني، فتقترب نظرته إلى الذوق من النظرة العلمية الحديثة التي تعترف بالذوق مقياساً جمالياً، وأن الذاتية قائمة ولن تزول إلا بزوال الشخص نفسه، فلا يمكن إنكار الذاتية وتجاهلها، لأن ذلك يؤول إلى جموحها، ومن ثم إفساد العمل النقدي، فهذا العنصر الشخصي الذي نحاول إبعاده سيعاند، ويكابر، ويتسلل في خبث إلى أعمالنا، ويعمل غير خاضع لقاعدة. (فالذوق إذاً هو العامل الفيصل في مشكلات النقد الفني، وبغير الذوق لا يستقيم نقد، والذوق إما تقدمي تسنده الرؤى الخلاقة، والموهبة غير العادية، فيستلهم في الأشياء قيماً تغيب عن أصحاب الذوق التقدمي، الذين ينساقون إلى الذوق العام الذي لا يناقش ولكن يتقبل الأشياء كما تمارس، اعتقاداً منه أن أصحاب الرأي قد بحثوها قبلاً منه، وعلى ذلك لا بد من أن يسايرهم، لكن هذا الاتجاه، لا يمثل قيادة في النقد الفني، هو نوع من الاستسلام للسائد ولذلك تأتي قضية النقد الذاتي كأساس هام عند كل مواطن يصدر أحكاماً جمالية. فالنقد الذي معناه التطبيق والتقويم والمتابعة في محيط المجالات العملية، التي تحتاج من المواطن العادي روية وفهم ومعايشة، ووجهة نظر، وإذا اعتاد ذلك سيكون له تفسيره

للسائد وسيناقشه قبل أن يطبقه ويستطيع أن يكيفه بمذاق خاص في القضايا التي تتصل بمحيطه. .) (البسيوني، د. ت، 75-76).

فاستخدام الذاتية في نقد العمل الأدبي لا يطيح بقيمة النقد، ولا ينقص من قدر الناقد، بل على العكس، يجعله أكثر موضوعية، لأن الاعتراف بالذاتية في العمل الأدبي، وإخضاع النفس لموضوع الدراسة من قواعد المنهج العلمي الموضوعي (مندور، 1392، 404، مندور، د. ت، 158).

والشيخ عبد القاهر بفكره النقدي الفذ، يضع لنا أسس هذا الذوق المعترف به، الذي يمكن اتخاذه مقياساً جمالياً، والطرق التي يكون بها التذوق ويتم، فهناك أمور يجب أن تتوافر في الناقد، وأن يتسلح بها قبل الشروع في عملية التذوق، وأمور يجب اتباعها عند القيام والشروع بعملية التذوق، فمن الأولى:

1- ضرورة توافر ملكة الذوق:

إنَّ أول خطوة من خطوات النقد الجمالي عند الشيخ، أن تتوافر عند الناقد ملكة الذوق والاستعداد لذلك، مع توافر أدوات المعرفة لديه، يقول: " واعلم أنه لا يصادف القول في هذا الباب موقعاً من السماع، ولا يجد لديه قبولاً، حتى يكون من أهل الذوق والمعرفة، وحتى يكون ممن تحدثه نفسه بأنَّ لما يُومئُ إليه من الحسن واللطف أصلاً، وحتى يختلف الحال عليه عند تأمل الكلام، فيجد الأريحية تارة، ويَعْرَى منها أخرى، وحتى إذا عجَّبته عجب،

وإذا نبهته لموضع المزية تنبه) (الجرجاني عبد القاهر، د. ت، 291).

2- صدق الناقد مع نفسه وقدراته:

يطالب الشيخ الناقد، بأن يكون موضوعياً مع نفسه صريحاً معها، فيختبرها ويتفحصها ويتأكد تأكداً تاماً من تسلحه بالملكة الذوقية، وأن لا يخدع نفسه، ويدَّعي ما لا يملكه، فإن مغبة ذلك عظيمة، لأن الملكة الذوقية أمر لا يتمتع به إلا قلة من الناس (الجرجاني عبد القاهر، د. ت، 549).

فالذوق عند الشيخ، أمر لا يمكن قسر النفس عليه وإجبارها على امتلاكه والتحلي به فليس الداء فيه بالهيِّن، ولا هو بحيث إذا رمت العلاج منه، وجدت الإمكان فيه مع كل أحد مسعفاً والسعي منجحاً، لأن المزايا التي تحتاج أن تعلمهم مكانها، وتصور لهم شانها أمور خفية، ومعان روحانية أنت لا تستطيع أن تنبه السامع لها (الجرجاني عبد القاهر، د. ت، 549).

فعملية النقد عند الشيخ عملية نفسية، من عدمها عدم الإحساس والشعور بالقيمة الجمالية للأدب، وبالتالي فقد اللذة الفنية التي تعقب هذا الإحساس.

3- التنبيه إلى صعوبة عملية التذوق النقدي:

ينبه الشيخ المتذوق إلى أنَّ عملية النقد عملية صعبة، لأنها لا تخضع لقاعدة ثابتة مطردة كبقية العلوم، فالناقد قد يقف وقتاً طويلاً أمام الأثر الأدبي، يتأمله ويقلب وجوهه وجوانبه، حتى إذا

ظن أنه قد حصل على مبتغاه، وتوصل إلى مرماه، تراءت له خطوات ونظرات تضطره إلى إعادة النظر، وتقليب الأمر مرة أخرى (الجرجاني عبد القاهر، د. ت، 271، 315، 553).

4- وجوب تسلح الناقد بالصبر:

يؤكد الشيخ عبد القاهر أن عملية التذوق والنقد، تحتاج إلى جهد وصبر ومعاناة، وطول معاودة وتأمل، حيث يقول: (ثم إنك تحتاج إلى أن تستقري عدة قصائد، بل أن تَفْلي ديواناً من الشعر حتى تجمع منه عدة أبيات) (الجرجاني عبد القاهر، د. ت، 89).

5- تربية الثقة في نفس الناقد:

يعمد الشيخ إلى تربية الثقة في نفس الناقد حتى تكون له شخصية مستقلة، فَكَرِه لذلك التقليد والاتباع من غير نظر وتدبر، فهو يهيب بالناقد أن يستقل برأيه، وأن لا ينخدع بالآراء التي تدور حوله من غير تأمل وفحص، وإن كانت صادرة من كبار العلماء والنقاد.

" ومن ذلك أنك ترى من العلماء من قد تأول في الشيء تأويلاً، وقضى فيه بأمر فتعتقده اتباعاً له، ولا ترتاب أنه على ما قضى وتأوَّل، وتبقى على ذلك الاعتقاد الزمان الطويل، ثم يلوح لك ما تعلم به أنَّ الأمر على خلاف ما قدَّر. .. " (الجرجاني عبد القاهر، د. ت، 553).

6- عدم التكاسل والتهاون والركون في عملية التذوق:

يعترف الشيخ بأن هناك أموراً لا يمكن أن نقف لها على علة، ولكن ليس معنى هذا التهاون والتكاسل، واتخاذ ذلك وسيلة لليأس، بل الواجب اتخاذ ما نعرف وسيلة إلى مالا نعرفه وأن نبذل في سبيل تلك المعرفة كل جهدنا وطاقاتنا، ويوضح الشيخ فكرته هذه بقوله: (واعلم أنه ليس إذا لم تُمكن معرفة الكل، وجب ترك النظر في الكل، وأن تعرف العلة والسبب فيما يمكنك معرفة ذلك فيه، وإن قل فتجعله شاهداً فيما لم تعرف، أحرى من أن تسد باب المعرفة على نفسك، وتأخذها عن الفهم والتفهم وتعودها الكسل والهوينا) (الجرجاني عبد القاهر، د. ت، 292).

أمَّا عن الخطوات التي يجب أن يتبعها المتذوق أثناء عملية التذوق:

1- ثبات درجة النشاط الحسي:

يشير الشيخ إلى خطوة مهمة على المتذوق الأخذ بها، وهي مراعاة الحالة النفسية أثناء عملية التذوق، فلا بد أن يكون المتذوق على درجة واحدة من الإحساس، فلا يقف على بعض النصوص وهو في حالة نشاط حسي، ويقف على أخرى، وقد أصابه الفتور الحسي نتيجة لكد ذهني، أو تعب جسمي، أو نفسي (الجرجاني عبد القاهر، د. ت، 93).

2- تأمل النص:

نادى الشيخ عبد القاهر الجرجاني بضرورة تأمل النص، فكل تقويم موضوعي للعمل الفني لا يقوم بنفسه عند عبد القاهر، وإنما يعتمد إلى حد كبير على عملية (التأمل) التي يلح الشيخ على إيرادها في صدر نصوصه، فهي عنده الطريق إلى فهم الجمال، وهي سمة من سمات الاستجابة الجمالية لديه، وهو يربط بينها، وبين البصيرة مرة، وبينها وبين العقل مرة أخرى وبينها وبين الخيال والاستقصاء، مع التأني والمراجعة، والصبر مرة ثالثة.

فالتأمل عنده وظيفة من وظائف الفكر، فهو لا يقصد به تقليب الشيء والنظر فيه من وجوهه المختلفة، بل هو يقصد إلى التفكير الجديد، في نص أو فكرة شعرية انتهى الفكر من تشكيلها، ثم النظر في علاقات الأجزاء بعضها ببعض، ثم علاقتها بالذات نفسها، وبعد هذه العملية التأملية يتولد الانفعال الجمالي، وتحل المتعة الجمالية، ويكون الأنس، ويكون الاستحسان والظرف، وتكون الأريحية (الصاوي، 1404هـ، 36-40). يقول الشيخ عبد القاهر: " وإذا نظرت إلى الفصاحة هذا النظر وطلبتها هذا الطلب، احتجت إلى صبرٍ على التأمل، ومواظبة على التدبر، وإلى همة تأبى لك أن تقنع إلاَّ بالتمام، وأن تَرْبَع إلاَّ بعد بلوغ الغاية، ومتى جَشِمْتَ ذلك، وأبيت إلاَّ أن تكون هنالك فقد أمَمْتَ إلى غرض كريم، وتعرَّضت لأمر جسيم، وآثرت التي هي أتَمُّ لدينك وفضلك، وأنبل عند ذوي

العقول الراجحة لك، وذلك أن تعرف حجة الله تعالى من الوجه الذي هو أضوأ لها وأنْوَهُ لها " (الجرجاني عبد القاهر، د. ت، 37).

3- الشعور بالهزة والطرب:

إنَّ الخطوة التالية لعملية التأمل، هي تولد الشعور بالهزة والطرب للمُسْتَحْسَن من الكلام والشعور بالتنقيص والتكدير لمستقبح القول، وفي ذلك يقول الشيخ: " فإذا رأيتك قد ارتحت واهتززت واستحسنت، فانظر إلى حركات الأريحية ممَّ كانت ؟ وعن ماذا ظهرت " (الجرجاني عبد القاهر، د. ت، 85).

ويقول في موضع آخر: " ومما يشهد لذلك أنك ترى الكلمة تروقك وتؤنسك في موضع ثم تراها بعينها تثقل عليك وتوحشك في موضع آخر"(الجرجاني عبد القاهر، د. ت، 46).

ثم يقول عن لفظ الأخدع في الأبيات الثلاثة التي أوردها " للصمة القشيري والبحتري وأبي تمام ": (فإنَّ لها في هذين المكانين[1] (ما لا يخفى من الحسن ثم إنك تتأملها في بين أبي تمام.. فتجد لها من الثقل على النفس، ومن التنغيص والتكدير أضعاف ما وجدت هناك من الروح والخفة، ومن الإيناس والبهجة) (الجرجاني عبد القاهر، د. ت، 410).

(١) (بيت الصمة القشيري، وبيت البحتري، الدلائل: 46-47.

4- العزل الفني للكلمة:

بعد أن يقع المتذوق على موطن الحسن أو القبح نتيجة الهزة التي شعر بها، يستطيع أن يختبر إحساسه بمحاولة إزالة الكلمة عن موقعها، أو تبديل تركيب الجملة ليحس بالفرق في الشعور الجمالي، يقول في ذلك: (وإن شككت، فتأمل هل ترى لفظة منها بحيث لو أُخذت من بين أخواتها وأفردت،لأدت من الفصاحة ما تؤديه وهي في مكانها من الآية؟[1] قل ﴿ابْلَعِي﴾ واعتبرها وحدها من غير أن تنظر إلى ما قبلها وما بعدها،وكذلك فاعتبر سائر ما يليها (الجرجاني عبد القاهر، د. ت، 45).

وفي ذلك يقول أيضاً: (. . وإن أردت أن ترى ذلك عياناً فاعمد إلى أي كلام شئت وأزل أجزاءه عن مواضعها، وضعها وضعاً يمتنع معه دخول شيء من معاني النحو فيها، فقل في: (قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزلٍ)، (من نبك قفا حبيب ذكرى منزلٍ)، ثم انظر هل يتعلق منك فكرٌ بمعنى كلمة منها ؟) (الجرجاني عبد القاهر، د. ت، 410).

5- المفاضلة والموازنة:

ومن الطرق الفنية لاختبار الإحساس والذوق، الموازنة، وعقد المفاضلات والمقارنات بين الأبيات، حتى يتبين الفضل والمزية، يقول

(1) ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [هود: ٤٤]

الشيخ: " وجملة الأمر أنك لن تعلم في شيء من الصناعات علماً يُمَّر فيه وتُحلي، حتى تكون ممن يعرف الخطأ فيها من الصواب، ويفصل بين الإساءة والإحسان، بل حتى تُفاضل بين الإحسان والإحسان، وتعرف طبقات المحسنين، إذا كان هذا هكذا، علمت أنه لا يكفي في علم " الفصاحة " أن تنصب لها قياساً ما، وأن تصفها وصفاً مجملاً وتقول فيها قولاً مرسلاً، بل لا تكون من معرفتها في شيء حتى تفصِّل القول وتُحصِّل وتضع اليد على الخصائص التي تعرضُ في نظم الكلم، وتعُدَّها واحدة واحدة، وتسميها شيئاً شيئاً، وتكون معرفتك معرفة الصنَّعَ الحاذق، الذي يعلم علم كل خيط من الابريسم الذي في الديباج، وكل قطعة من القطع المنجورة في الباب المقطَّع، وكل آجُرَّة من الآجُرِّ الذي في البناء البديع "(الجرجاني عبد القاهر،د.ت،37).

6- ملاحظة وحدة الصورة:

ومن الأسس الفنية الذوقية عند الشيخ التي ينادي بها، ضرورة ملاحظة وحدة الصورة وتلاحم أجزائها في النص الأدبي، فالأديب البارع عنده، هو الذي يحاول فرض ضرب من الوحدة على ما في موضوعه من تعدد في الأشكال، أو الحركات، أو الصور، وحين يوجد الفنان عناصر موضوعه المؤتلف منها، والمختلف، فإنه يخلع على عمله الفني إيقاعاً خاصاً يحمل إحساساً معيناً (الصاوي، 1404هـ، 59، الجرجاني عبد القاهر، د. ت، 96-97).

وعلى هذا الأساس استجاد، قول بشار (بشار، 1396هـ، 335/1):

كَـأَنَّ مُـثَـارَ النَّقْعِ فَـوقَ رُؤوسِنَـا

وَأَسْـيَـافَنَا لَيْلٌ تَهَـاوى كَـوَاكِـبُـهْ

يقول الشيخ: " . . فينبغي أن تنظر إلى الذي به اتحدت المعاني في بيت بشار، وإذا نظرنا لم نجدها اتحدت إلاَّ بأن جعل (مُثار النقع) اسم (كأن)، وجعل الظرف الذي هو (فوق رؤوسنا) معمولاً (لمثار)، ومعلقاً به، وأشرك (الأسياف) في (كأنَّ) بعطفه لها على (مثار) ثم بأن قال: (ليل تهاوى كواكبه)، فأتى بالليل نكرة، وجعل جملة قوله: (تهاوى كواكبه)، له صفة، ثم جعل مجموع: (ليل تهاوى كواكبه)، خبراً (لكأن) " (الجرجاني عبد القاهر،د.ت،415).

إضافة إلى أن هناك أبياتاً أتى بها الشيخ، وحكم عليها بالجودة أو بالرداءة، وقام

بتحليلها كاملة، وبين أسرارها وعللها. وكأنه يقدم للمتذوق نموذجاً تحليلياً تطبيقياً متكاملاً.

ومع هذا، فإنَّ الشيخ لا يقدِّم هذا النموذج على أنه نموذج متكامل لا يحق للناقد

مراجعته والنظر فيه، بل إن الشيخ ينادي ويحث الناقد على النظر والتأمل، حتى في كلام كبار النقاد، وأن لا ينخدع بالآراء التي

تدور حوله من غير تأمل، وفحص، قاصداً من ذلك تربية الثقة في نفس الناقد، حتى يستقل برأيه.

7- إصدار الحكم والعلة:

وبعد هذه الخطوات في التعامل مع النص، واختبار الإحساس، يستطيع المتذوق بعد ذلك أن يصدر حكمه على الأثر الأدبي بالحسن أو القبح، وأن يذكر علة لجهة استحسانه، أو عدمه.

وفي ذلك يقول الشيخ: (وجملة ما أردتُ أن أبيِّنه لك: أنه لا بد لكل كلام تستحسنه ولفظ تستجيده من أن يكون لاستحسانك ذلك جهة معلومة وعلة معقولة، وأن يكون لنا إلى العبارة عن ذاك سبيل، وعلى صحة ما ادعيناه من ذلك دليل) (الجرجاني عبد القاهر، د. ت، 41).

فالشيخ عبد القاهر لم يكتفِ بالمطالبة والمناداة بموضوعية الذوق، بل ارتقى به ليكون ذوقاً موضوعياً ووسيلة مشروعة للمعرفة.

ومن خلال أسلوب الشيخ عبد القاهر في تحليلاته للشواهد في كتابه دلائل الإعجاز وطريقته في تناولها، نستطيع أن نستخلص منهجاً تذوقياً في تنمية وتدريب الذوق البلاغي.

فالملاحظ أنَّ الشيخ أتى بشواهد بيَّن فيها مواطن الحسن أو القبح ولم يقم بتعليل حكمه وبيان سره، وكأنه بذلك يدرب الناقد

بإثارة إحساسه وتحديه، عن طريق مساعدته في الوقوف على بعض مواطن القبح أو الحسن، وتركه يتأملها، ليستيقظ إحساسه ويتنبه، ومن ثمَّ تشجيعه على استنباط العلل والأحكام.

كما أن الشيخ أتى بشواهد بين فيها مواطن الحسن أو القبح وعلل لبعضها، وترك البعض الآخر، وهذه خطوة تالية يتدرب عليها المتذوق، بمعرفة بعض معالم الطريق، ويقوم بتعليل ما تركه الشيخ مستضيئاً بالجوانب المعللة.

وهناك شواهد أتى بها الشيخ مكتفياً ببيان الظواهر النحوية بها، وكأنه يحث الناقد على اكتشاف الأسرار البلاغية في ضوء هذه الظواهر النحوية.

كما أن هناك أبياتاً أتى بها الشيخ من غير أن يحكم عليها بجودة أو برداءة، أو يشير إلى مواطن الحكم، وكأنه بذلك يترك للناقد فرصة تدريب إحساسه على اكتشاف المواطن، ثم التعليل لذلك.